الفصل الخامس

الأبعاد الفنية في نثر الأمير عبدالقادر الجزائري

الأبعاد الفنية في نثر
الأمير عبدالقادر الجزائري

١ - الأبعاد الفنية في مؤلفاته:

العمل الأدبي فكرة ما، أو إحساس معين، يقوم الأديب بالتعبير عنه بالألفاظ والعبارات ولكل أديب أدواته ووسائله التي يبني عليها هذا التعبير، والتي تنبع من قدراته الفنية والنفسية، ومن تراثه الفكري والثقافي، وعلى توفيقه في استغلال تلك الوسائل والأدوات، يكون صدق العمل الأدبي ونجاحه، ذلك أن من الأدباء من يلتفت إلى نفسه ويثق فيها، ويحاول أن يفتح بها أو فيها آفاقاً من التفكير أو الشعور أو التحليل ليعرضها كما هي في أقوى أحوالها، أو أوضح خواصها دون تحرج أو تكلف، ثم يطوع أساليب اللغة لطريقة تفكيره وتصويره، فإذا به شيء جديد وشخصية ممتازة.

وعبدالقادر عاش خلال قرنين متوازيين، هما الثالث عشر الهجري، والتاسع عشر الميلادي، ورآهما وهما يتصارعان، ويكاد يغلب أوغلب بالفعل أحدهما الآخر فشارك بالفعل وبالقول في صراع موروث منذ زمن طويل بأثقاله العسكرية والثقافية فعاش أكثر من خمسة وسبعين حولا يدافع بكلتا يديه وأداتيه، إذ نشأ شاعراً فارساً وصار حاكماً عالماً، ولذلك جاء أدبه معبراً عن أصدق الانفعالات في حياة مقاتل موتور ومجاهد يقيم على الجهاد.

والحديث عن أسلوب عبدالقادر في التفكير والتعبير كليهما" سوف يتيح لنا فرصة الاستدلال على شخصيته ذلك أنه" يندر العثور على حاكم في ذلك العصر يكون قد

بلغ من ثقافة مجتمعه ما بلغه عبدالقادر من تراثه، فضلا عن أن يكون قد أضاف إلى ثقافة التراث هذه مزيداً جديداً من الإشباع والتجلية وحسن البيان"[٨٧٨] .

ومادام النثر فناً أدبياً كالشعر، فيه كما يذكر د. طه حسين" مظهر من مظاهر الجمال، وفيه قصد إلى التأثير في النفس في أي ناحية من أنحائها"[٨٧٩] .

فإن عبدالقادر قد سلك هذا السبيل إلى جانب فن الشعر ليعبر من خلاله " عن فكره وتحقيق غايته في الإصلاح العمراني، لأنه كما نعرف يهدف إلى تجلية جوانب التراث والمشاركة المستمرة في تنميته، وإلى توصيل التراث مصفى بارئاً من ركام المعميات والشبهات للقادرين على مواصلة السير إلى الكمال والتحقيق، وإلى إصلاح وسيلة المواصلة بتهذيبه للأسلوب اللغوي، وهو يعبر عن أعوص القضايا في عصره.

إذا كان من السهل الكتابة عن الأمير الشاعر لما في شعره من تقاطع عاطفي مع ما في وجداننا، ولما فيه من أنفاس شعراء تشابهت حياتهم وحياته كعنترة وأبي فراس وأبي الطيب ممن تشرب شعرهم وتشربنا مزنه معه" فشواهد أبي فراس مثلا جعلته ينزع من الأمير ثناءً فريداً لم يثن بمثله على أحد من الشعراء لأشياء عديدة جامعة بينهما في الحروب والمواقف الشخصية والشعر والأسر وتلك النزعة المتسامية على صروف الدهر وغلبة العدو وغدر من كان ينتظر منه الوفاء أو كان يعد به"[٨٨٠] .

والكتابة عن الأمير الناثر أمر في غاية الصعوبة لأنه يحتاج من الدارس إلى استقصاء المكونات الثقافية التي طبعت شخصيته وإنعام النظر فيها .

فالتكوين الثقافي عند الأمير متعدد الجوانب متنوع المشارب فهو إلى جانب تكوينه التقليدي المتمثل في حفظ القرآن الكريم وأحاديث الرسول وإلمامه بالفقه وأصوله واللغة وقد كان ملماً بفلسفة اليونان عامة والفلسفات الشرقية والإسلامية[٨٨١]

ولذلك جاءت ثقافة عبدالقادر " فعالة مؤثرة مثلما هي جامعة عامة شاملة وإن لها

خصائص وأهدافاً منشودة وموعودة ومدروسة ومراجع وشيوخاً، وإن بين أصحابها نوعاً من التفاهم الخاص واتفاقاً تواترا على نتائج كثيرة من لجوئهم حيناً أو ما يسمونه الكشف حيناً آخر، ومع أن ثقافة الأم هذه لا تكاد تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصتها ولحقت أو حاولت أو طوفت بها فإنها ذات ملامح مميزة لا تجعلها تشبه كثيرا بغيرها"[٨٨٢] .

والتصدي لدراسة مؤلفات الأمير وكتبه " المواقف – المقراض الحاد، وذكرى العاقل، والمذكرات"، يتطلب فيما بحسب تفرغاً تاماً ودراسة أكاديمية جادة وذلك لثراء هذه المؤلفات وامتيازها بخصائص وأن تشترك مع غيرها وتنفرد عنها.

ولذلك فسنحاول أن نوضح هذه الخصائص العامة في كتبه على أن نفصل بعضها بصورة أوسع وأعمق في رسائله، وإن كان أسلوب عبدالقادر لا يكاد يختلف كثيراً في كتبه عن رسائله مع مراعاة الأمير دائما مقتضى الحال إلا أن هناك تشابهاً كبيراً بين أدواته الفنية في كل ما ألف عبدالقادر فالكتابة عنده تتباين من مؤلف إلى آخر بحسب الموضوع الذي يتناوله .

ففي (المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد) أو في (ذكرى العاقل وتنبيه الغافل) نجد الأمير ينزع إلى أسلوب يمكن أن نصطلح على تسميته " بالنثر العلمي المرسل" وهذا النوع من النثر هو الذي يترك فيه القلم على سجيته يمضي في التعبير عن الأفكار تعبيراً واضحاً دقيقاً مع التفصيل والشرح ومن منهج فكري واضح القسمات يعتمد على العقل بالدرجة الأولى، وعلى التحليل المنطقي والاستنتاج والعناية بالتسلسل والترتيب والتقسيم[٨٨٣] فهو مثلا حين يأتي لتعريف العقل يقول" اعلموا أن العقل منبع العلم وأساسه ومطلعه . . . " ثم يعمد بعد ذلك إلى إيراد المعاني الدالة عليه وأقسامها . " واسم العقل يطلق على أربع معان بالاشتراك : الأول الوصف . . . الثاني هي العلوم التى تخرج إلى الوجود . . . والثالث علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال . . . . . والرابع أن تنتهي قوة تلك الغريزة[٨٨٤] .

وهذا الأسلوب الذي يتخذ العقل دليلاً اعتمده عبدالقادر في مؤلفيه السابقين ولذلك فهو يخلو من العناصر الوجدانية من عواطف وأحاسيس وانفعالات كما يخلو من الخيال وما يقتضيه من تفنن في الصور وإبداع المشاهد لأن الغاية عند الأمير النفع والتثقيف والمجادلة بالحجة " تكملة للحوار الذي كان دائراً بينه وبين المتناظرين في باريس[٨٨٥] " وتجسيدا لطموحه المهدد في بلوغ الكمال والغاية المنشودة ولن يتحقق ذلك إلا بالعقل، ومن هنا يبدو أسلوب عبدالقادر في مؤلفيه " أقرب مايكون إلى التوسيع فهو يبدأ بأصل عام ثم يأخذ في التفريع والتقسيم والبيان والمقابلة والمفاضلة والاختيار[٨٨٦] " .

وهو ينزع إليها لأنه " يدرك جيداً قيمة أن يعرف الأصل ثم تتدلى حسب تغيره إلى الفرع فذلك أعلى مقاماً عنده من أن تعرف الفرع ثم تترقى إلى الأصل"[٨٨٧] .

وانطلاقا من هذه الخاصية يلجأ عبدالقادر في عرض قضاياه إلى التحليل المنطقي، فالقارئ الآكد للذهن يمكن أن يدرك كيف قابل الأمير بين كمال العقل بظهور خاصيته ونقصانه بخفاء تلك الخاصية لأن الضدين لا يجتمعان في شيء واحد في وقت واحد كما يقول المناطقة " وكمال كل شيء يكون بظهور خاصيته التى امتاز بها عن غيره ونقصانه هو خفاء تلك الخاصية فبقدر ما تظهر تلك الخاصية يطلق عليه اسم الكامل وبحسب ما تستتر فيه يخص باسم الناقص"[٨٨٨] وقوله كذلك" وإن أقوال العلماء المتدينين متضادة متخالفة في الأكثر واختيار واحد منها واتباعه بلا دليل باطل، لأنه ترجيح بلا مرجح فيكون معارضاً بمثله[٨٨٩] " .

ومن هنا فإنه بإمكان القارئ لمؤلفات الأمير عبدالقادر أن يستبدل الكثير من جمله بقضايا منطقية رياضية فقول الأمير " فالعقل منبع العلم ومطلعه وأساسه والعلم يجري منه مجرى الثمر من الشجر[٨٩٠] " يمكن إعادة كتابته على شكل قضية منطقية على النحو التالي :

العقل = العلم

العلم = الثمر

وبالتالي فإن العقل = الثمر .

وقد لا يخفى على القارئ تركيز الأمير على بعض الموضوعات بعينها بل وتكرارها في مؤلفاته الأخرى كحديثه عن النبوة واختلاف الناس أو الحاحه على مبدأ الوفاء بالعهد والصدق وهذا اسلوب إيحاء وإيعاز لمحاوريه الذين نكثوا ما عاهدوا الله ثم الأمير عليه ونقضوا مواثيق أبرموها وغير خاف ما في هذا التكرار المتعمد من مقاصد .

ومن أهم الملاحظات التي يجب أن تسجل للأمير في هذا هي فصاحة اللغة وابتعاده عن ماكان سائداً في عصره على الأقل ، فالقارئ للمقراض الحاد أو ذكرى العاقل يلحظ أن الأمير يستخدم لغة عربية سليمة طوعها لأن تكون وعاء لكثير من المصطلحات والنظريات العلمية التي كانت سائدة في عصره مبتعداً عن السجع المتكلف الموشح بالبديعيات الذي كان يغلب على نظرائه في ذلك العهد فأسلوبه واضح فصيح يدل على المعاني بلا زخارف إلا في القليل النادر كالطباق الذي يعد ألصق بالمنطق إذ بالأضداد تتمايز الأشياء .

فألفاظ الأمير واسلوبه يشاكل الموضوع مشاكلة تامة بمعنى أنه إذا كان الموضوع فلسفيا وجدت الأمير يلجأ إلى الألفاظ التى تفي بالغرض ويفصح بدقة عن المعاني والأفكار الفلسفية التى يريد عرضها ، وإذا اختلف المضمون اختلف اللفظ عنده وهو ينبئ أن الأمير كان الى جانب اكتسابه كماً هائلاً من التراث الفكري والعلمي يملك معجماً لغوياً ثرياً للتعبير عن دقائق الأمور كما هو الشأن مثلا في قوله عن عجز البصر أحيانا في إدراك الشيء المرئي بقوله" ويرى المعدوم ساكناً وهو متحرك ، ويرى الثلج أبيض ولا بياض فيه أصلاً فإنه مركب من أجزاء شفافة اللون لها وهي الأجزاء المائية فلولا العقل لكان معتقداً صحة ما أدركه حسه مخطئاً خطأً فاحشاً ولهذا قال أفلاطون

وأرسطو وبطلموس وجالينوس : الحسيات غير يقينية بمعنى أن جزم العقل بالحسيات ليس بمجرد الحس بل لابد مع الإحساس من أمور تنضم الى الحس لا نعلم ما هي وحينئذ يجزم العقل بما جزم به من المحسوسات[٨٩١] " .

وقوله يتحدث عن القلب بأوردته وشرايينه " . . . فإنه بمجرد انفصاله عن الكبد ينقسم إلى عرقين أحدهما يسمى النازل يفارق الصاعد إلى أن يتوكأ على عصام القلب ثم يذهب إلى الرجلين والآخر يسمى الصاعد يذهب إلى أن يقارب في القلب وهذا ينقسم إلى قسمين أحدهما ينبت في الرئة والقلب وبعض الأضلاع والآخر يذهب إلى الصدر والرقبة واليدين والرأس والمقصود من أوردة اليدين الباسليق والقيقال وحبل الذراع والأكحل الأسيلم الأيمن والأسيلم الأيسر والرجلين والنسا والصافن[٨٩٢] " فانظر إلى هذه المصطلحات والكلمات وكيف تتبع الأمير الأمر وكأنه جراح بمبضعه يشرح ويعلم، وتلك نزعة لازمته طول حياته .

ومن هنا استطاع الأمير في مؤلفيه أن يتناول هذه الموضوعات بأسلوب موسوعي مكنه من الحديث عن العقل بلغة الفلاسفة والمناطقة، كما مكنه من الحديث عن الأفلاك والأجرام السماوية بلغة الفلكيين الجغرافيين وهو نفسه الذي مكنه من التعبير بدقة عن الإنسان وأعضائه وأجهزته بلغة الأطباء وعلماء الطبيعة، وقل مثل ذلك في حديثه عن النبوة والرسل والأخلاق والإسلام .

والجمل عند الأمير في مؤلفاته تتفاوت حسب الموضوع، فتارة تطول وأخرى تقصر، وإن كان يغلب على مجملها الأسلوب الخبري، لأنه في مجال عرض حقائق علمية لا في مجال تصويرها، ولعل ما يؤكد ما نذهب إليه أن أكثر أدوات الربط استخداما من قبل الأمير (إما) التفصيلية التى تسهل عادة على الكاتب أن ينتقل من فكرة إلى فكرة وذلك لتوصيل ما يريده . وتتجلى ظاهرة الإطناب أيضا في كتابات الأمير لأنه عادة مايعرض الفكرة لا كما يراها هو بل كما جاءت في القرآن والحديث

والعلوم والتاريخ، وهذا ربما الشيء الذي جعل الأمير لا ينتبه في كثير من الأحيان لظاهرة التكرار في الموضوعات التي تتبدى واضحة في مؤلفاته.

ولعل الملاحظة التي يمكن للقارئ أن يخرج بها هو أن الأمير حتى وإن كانت الفصحى تغلب على جل لغة مؤلفاته إلا أنه يلجأ في أحيان كثيرة إلى توظيف بعض الأساليب والجمل العامية ولعل ذلك يتجلى بشكل واضح في مذكراته وهو الذي أشار إليه محققوها في قولهم: " ونشير هنا على سبيل المثال – لا على سبيل الحصر – أن بعض العبارات التي يصطدم بها القارئ وهي معدودة في أسلوب العصر ومصطلحاته[٨٩٣] " ولذلك فإن الأمير أراد أن يجاري هذا الأمر هو ورفاقه " فقد اجتهدوا في جعل أسلوبهم متقاربا مع أسلوب هؤلاء الأجانب الذين يمارسون العربية ببعض الصعوبة فاستعملوا مثلهم كلمات مثل (القوازيط : يعنى الصحف)(والقيرا : الحرب) (البنديرا : العلم) إلى غيرها من الألفاظ[٨٩٤] " .

وربما كان الأمير يسعى من وراء ذلك إلى " رغبة في الإفهام والفعالية[٨٩٥] " وتلك خاصية في الأمير في مراعاة الأحوال والمقامات ولذلك نجده في مؤلفه الضخم ينحو منحى مغايرا يستخدم الأسلوب السهل الممتنع حين يوغل في الرموز والإشارات واستخدام تلك المصطلحات الصوفية والدينية تجعل القارئ المتخصص في بعض الأحيان يقف عاجزاً عن إدراك مرامي الأمير ومقاصده وذلك لتشبع الأمير صوفياً بها مع أن فكرة المواقف صوفية " في الدرجة الأولى إلا أن النظام العسكري الذي عاشه فترة طويلة من حياته قد يكون بما يتضمنه من تدرج في المراتب أتاح له ايضا الفرصة لترسيخ فكرة هذا التصنيف التصاعدي"[٨٩٦] .

وحتى وإن كان الأمير في مقدمة المواقف قد عمد إلى أسلوب يجاري " أساليب أخرى كالمقام والمذهب الكلامي وأسلوب المتكلمين والحق أنه ليس كذلك تماما وإنما هو شبه ذلك فقط، ولهذا قال مرة عما يسميه بعضهم أسلوباً مقامياً في كلامه أنه شبه

مقامي .

والأمير كما يذكر د بناني حتى وإن لم يكن قد ألف في هذا الفن(المقامات) على ما يبدو " إلا أنه حاول بلا شك أن يجاري أسلوب المقامات ولو في مقدمة كتابه المواقف فقد راح فيها على غرار بطل المقامة يروى ارتجالا أمام جماعة من المستمعين في مقام يشهد له فيه بالبراعة والإبداع، حادثة غريبة عاشها بالفعل منتحلا في روايتها أسلوب الكناية والسجع"[٨٩٧] يقول الأمير : " حضرت محاضرة من محاضرات الشرفا، ومسامرة الظرفا، في ناد من أندية من العرفاء. . . . وكان الحديث شجوناً وألواناً وفنوناً إلى أن تكلم عريف الجماعة ومقدم أهل البراعة فقال أحدثكم بحديث عنقاء مغرب فاشرأبوا لسماعه ومدوا أعناقهم وفرغوا قلوبهم وحدقوا أحداقهم فقال. [٨٩٨] " . . وهكذا" يمكن القول أن المواقف للأمير هي بمنزلة المقامات بالنسبة لأصحابها فهذه تروى قصة الوجود الاجتماعي وتحاول تقييده في مقامة تاريخية وتلك تعيش الوجود الصوفي في موقف من المواقف الأزلية أما ماعدا هذا فإن كلا من المقامة والموقف يهدفان إلى مطابقة الكلام لمقتضى الحال"[٨٩٩] .

والأمير في مواقفه لا يفتأ ينقلك على – عادة المعلم– دائما من موقف إلى موقف فيجمع الأدلة والشواهد ما أتيح له " سواء ما يأتيه عن طريق الذوق والكشف يسوق له الأدلة العقلية والنقلية أو كلتيهما للبرهنة على صحة ما يراه، ولعل جل المواقف إن لم نقل كلها تسير على هذا النسق وتتبع هذه الوتيرة [٩٠٠] " .

وهو يعمد إلى تفصيل الموقف حتى ليأخذ منه في بعض الأحيان العشرات من الصفحات وذلك ليشرح " ما أجمل أو افتراض الفروض الممكنة القريبة منها والبعيدة ولذلك تكثر أدوات الفرض والاحتمال مثل : من – إذا– لو– ربما– ونحو – وعلى كل حال –"[٩٠١] .

والأمير في مواقفه يشعرك بعجز اللغة أحيانا عن استيعاب تلك الرموز والإشارات لحمل المعاني، ولذلك فالذوق عنده الأساس في الفهم والتوصيل ولما كان " الخطاب في النص الموقفي موجهة لنقل التجربة الصوفية من وضع مجازي خارج عن الزمان إلى حقيقة حاضرة تدعى الذوق لا زمان لها في المستقبل لأنها ذاتية غير قابلة للنقل والتحدد عبر التاريخ ولأنها، غير متناهية اللهم إلا بنهاية الدنيا وقيام الآخرة"[٩٠٢] .

فالذوق الصوفي عنده أعم وأتم من الذوق الأدبي لإدراكه كنه الأشياء مع أنه " يفاضل بين الذوق والعلم ويرجوهما معا"[٩٠٣] .

ومهما يكن فإن عبدالقادر في مواقفه حتى وإن تعرض إلى أدق وأخطر القضايا في تاريخ الفكر الديني والفلسفي والصوفي خاصة إلا أنه يحمل القارئ على إدراك حقائق أشياء كثيرة بالحجة والدليل " وبهذا يكون الأمير قد نقل التصوف من ذلك الموقف الفردي إلى موقف جماعي، ومن موقف طبقي إلى موقف شعبي، ومن الصفوة إلى الجماهير، ومن الذوق والكشف إلى الجهاد والاستشهاد"[٩٠٤] .

١ - الأبعاد الفنية في رسائله ومراسلاته:

والمتصفح لأسلوب عبدالقادر ولغته النثرية، سيلقى نفسه بلا ريب أمام أديب حاول- بقدر ما أتيح له- أن يستجيب على الأقل لأوامر ونواهي مصدر ثقافته الأول "وقد يقال الأول والأخير فهو يلتزم بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن عند مبارزة البيان لذي العداوة، فكيف بباب المدح في الشعر والمراسلات في النثر مع أهل المودة[٩٠٥] " .

ومن خلال الاستقراء المتأني لرسائل الأمير عبدالقادر، فإن ثمة خصائص فنية بارزة تبدو في أسلوبه ولغته .

فهناك مصدره الأساسي الذي لاشك في رجوعه إليه، ونصه عليه، واستقائه منه دون أن تبرد أشواقه، وإشادته به في كل مناسبة"، ودون أي مناسبة، ذلك هو القرآن

والسنة حتى ليصح أن يسمى " الأديب القرآني[٩٠٦] " ويتجلى ذلك واضحاً في نثره، حتى نرى الأمير عبدالقادر يعمد إلى هذين المصدرين مستعينا بهما في تحرير رسائله اقتباسا أو إيرادا باللفظ والمعنى" فالقرآن مصدره الدائم العام، فيه أصل كل العلوم دون استثناء إطلاقا، وقد أطال النظر فيه والإفادة منه، ونسبه كل فضل إليه، والثناء عليه وعلى مايليه في الأهمية، وهو الحديث النبوي، وعلى طريقة النبي في التفهيم أو مراعاته صلى الله عليه وسلم مقتضيات الأحوال[٩٠٧] " ومن ذلك ماورد في رسالته إلى أهل "فجيج" حيث رأينا عبدالقادر يلجأ إلى القرآن والحديث لتدعيم أقواله في الدعوة إلى الجهاد والحث على مقاومة الاستعمار، فيستقي من القرآن والسنة أفضل ماورد فيهما في هذا المجال، يقول: " . . . . . فإن المؤمن للمؤمن كالبنبان المرصوص يشد بعضه بعضا، والمسلمون كالجسد الواحد يتألم الجميع بتألم البعض، ولا يكون المؤمن مؤمنا حتى يحب لأخيه، والمسلم أخو المسلم، وتعاونوا على البر والتقوى، إنما المؤمنون إخوة، ياأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض[٩٠٨] " ومن ذلك أيضا قول الأمير: " . . . . . إلى أن جاء الإسلام فمنع ذلك، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم" لا تتبع النظرة فإن مبدأ الزنا معاودة النظر[٩٠٩] " ومنه قوله وهو يحاج الجنرال دوماس في قضية الطلاق التي أثارها هذا الأخير زاعماً أنها متفشية في المسلمين " ففي الطلاق منافع وأضرار . . . . . وعلى كل حال فإنه لا يخلو من الأذى ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتز منه العرش"، وقال: " تزوجوا ولا تطلقوا فإن الله لا يحب الذواقين والذواقات[٩١٠] " ورجوع عبدالقادر إلى القرآن والحديث يقتبس منهما مرده إلى أن عبدالقادر يرى فيهما مجالاً: " ميسراً للذكر والفهم لكل ذي استعداد ونظر، ولكل واحد- كما يرى الأمير- لأن يفهم ويلهم منه حسب طاقته، فلن نبلغ جميعا إلا ما يبلغه العصفور من البحر بنقرته، وليس لأي منا أن يقول هذا مراد الله لا زائد عليه، أو مراد رسوله لا غير، لأن معانيه متعددة وتأثيره باق، ولهذا امتنعت رواية القرآن والحديث بالمعنى عنده ليأخذ كل منهما حسب استعداده، إذ رويا بلفظهما[٩١١] ".

وإلى جانب القرآن والحديث، فإن عبدالقادر في رسائله يعمد إلى التراث يستقي منه ما يدلل به على أقواله وأفكاره، سواء أكان شعراً، أم حكماً، أم قصصاً خاصة أثناء ردوده على سائليه مما يدل على مدى تمكن الأمير وقوة اطلاعه على تراثه، وقدرته على الاستيعاب، بل ومقدرته على توظيف هذا الموروث وهو يحاور خصومه، وتتجلى براعة الأمير في مدى حسن اختياره لشواهده هذه التي أتى بها لتخدم غرضه وفكرته، فهو تارة يستشهد بالشعر وأخرى بقصص وحكم وأمثال، وثالثة بوقائع تاريخية ليدمغ بها حجج خصومه" لأنه كان يرى أن حسن الاختيار والاقتباس من التراث لا يعد كونه مجالاً من مجالات الصراع والمجالدة، لان اسم الجهاد عرف في ظروف أكثر خصوصية واتساقاً، فعرف منه عبدالقادر نوعين تعريفا مناسبا وسماها التسمية الوراثية، فكان منه الجهاد الأكبر وهو الصراع النفسي، والجهاد الأصغر وهو مدافعة العدو عن النفس والأرض والعرض والتراث بكل وسيلة[٩١٢] "، ومن هذا المنطلق زخرت رسائل الأمير وأثراها بمثل هذه الشواهد، من ذلك ماورد في رسالته إلى الأمير شامل، حيث نجد الأمير يضمن رسالته بعض الأبيات، كقوله: " . . . . . والبغي في كل الأمم مذموم ومرتعه وخيم ومرتكبه ملوم، ولكن:

يُقضَى على المرء في أيام محنته

حتى يرى حَسَناً ما ليس بالحسن[٩١٣] "

ومنه أيضا قوله في رسالته إلى الجنرال دوماس، حيث أجابه على سؤاله المتعلق بقضايا الحجاب والسفور: " وقال حكيم لصياد رآه يتكلم مع امرأة ياصياد الوحوش: احذر أن تصيدك هذه المرأة، وقال بعض الحكماء: النظر إلى المرأة سهم والكلام معها سم. . . . وفي المثل ثلاثة لا تؤمن على ثلاثة:

شاب على امرأة، وامرأة على سر، وفقير على مال، وقال بعض الشعراء:

لا تأمنن على النساء ولو أخا

مافي الرجال على النساء أمين[٩١٤] "

بالإضافة الى ما سبق، فإن عبدالقادر في أسلوبه قد اعتمد على الإضافة المنتظمة للأدلة والشواهد والإحاطة بالعديد من المراجع الشرعية والأدبية والتاريخية والكتب المقدسة" تلك التى تعد معرفة ما فيها جزءاً ضرورياً لمثل هذه المناسبات في ثقافته التى ثقفها قبل نفيه، كما تعتمد على مشاهداته وخبراته ومقارناته بين المجتمع الغربي والمجتمع الشرقي، والإقرار بالفروق التي تعيب الشرقيين أو بعناصر معينة فيها، والتماس ما في المجتمع المتخلف من ذلك التقدم[٩١٥]".

والحقيقة أن النظر والاستشهاد والاحتجاج بالكتب المقدسة إحدى اللوازم العلمية، والمهام الثقافية التي نهض بها كثير من علماء المسلمين، وفيما ينقله هؤلاء العلماء من تلك الكتب، وفي الموضوعات التي تناولها عبدالقادر وبالذات ما يشي بالوقوف موقفه، كما ينم عن الترجمة من لغة الى لغة، بل إن فيها ما يحفظ كثيرا مما عسى أن يكون قد ضاع من النصوص أو يرى – على الأقل – فرصة للمقارنة بين الترجمات المتعددة[٩١٦]"، وقد لجأ الأمير إلى هذه الكتب المقدسة في رسائله ليرد بنصوصها على خصومه إجلاءً للحقيقة، وقد أتيح له ذلك فيما يذكره د. طه الحاجري: " أثناء إقامته بفرنسا، وقد رأينا اتصاله ببعض رجال الدين المسيحي، ومنهم من كان يتصدى له وتبلغ به السذاجة أو قوة الاعتداد بنفسه إلى أن يطمع في صرفه عن دينه بتحويله الى المسيحية[٩١٧]"

ومن أمثلة استشهاد عبدالقادر بهذه النصوص من الكتب القديمة ما ورد في رسالته التى يتحدث فيها عن موضوع الطلاق في الإسلام، حيث يقول: " والطلاق مباح في الأديان القديمة، ففي التوراة في الإصحاح الحادي والعشرين في سفر الخروج: إذا استقبح سيدها زواجها فليطلقها " وفي سفر الأحبار في الإصحاح الثاني والعشرين: إذا طلقت بنت الكاهن ولم يكن لها أولاد رجعت إلى بيت والدها تأكل من القدس، فعلم من هذا أن الطلاق ليس خاصا بالمسلمين[٩١٨]" كما ضمن الأمير إلى جانب هذا بعض الأحاديث التى رويت عن رسول المسيحية سيدنا عيسى عليه السلام وذلك كمثل قوله: "

. . . . وقال عيسى بن مريم : إياكم والنظر فإنه يزرع في القلب الشهوة، وأول العشق النظر، وأول الحريق الشرر[٩١٩] . " وإن دلت هذه الاستشهادات على شيء فإنما تدل على ما كان يتمتع به عبدالقادر من ثقافة دينية عميقة، واطلاع واسع على الأديان جعله يناظر ويرد على سائليه من النصارى بآياتهم، وتلك لاريب الحجة التى مابعدها حجة .

ومن الملاحظ على أسلوب عبدالقادر كذلك، إطالته للحوار والاسترسال وذلك لحرصه الشديد على الشرح من جهة وإصراره على التعليم والبيان، فحين يتحدث مثلا عن قضية الحجاب والسفور، نراه يعمد إلى القضية فيعرضها عرضا تاريخيا، ويعطي كل مرحلة ما تستحقه من الشرح والإيضاح، ويتدرج بعدها إلى التي تليها موضحا فيها رأي الدين والشرع، وما أنزل بشأنها من الأحكام فلا يغادر صغيرة في الموضوع ولا كبيرة إلا وتعرض لها، مدعماً أقواله بما أتيح له من الشواهد والأدلة، حتى يكون لرده وجوابه الأثر المبتغى، ونفس الشيء ينطبق على مراسلاته الأخرى، ففي رسالته إلى الخليفة العثماني نرى عبدالقادر وكأنه مؤرخ يستعرض الأحداث التي عاشها في البلاد الواحدة تلو الأخرى من معارك ومعاهدات مسترسلاً شارحاً كل القضايا وملابساتهاحتى ليظن القارىء أن الأمر لايعدو كونه تقريراً وعرضاً تاريخياً لايمت لفن النثر بأية صلة وهكذا فإن المتصفح لما خلفه عبدالقادر في الجانب " يلحظ صفات الشرح والاستشهاد الأدبي والتاريخي، والتثبت، والاحتياط، واستخدام أدوات وأساليب التوكيد والتشكيك وعزو الشواهد إلى مراجعها، ومراجعة نفسه فيما يخطئ فيه، فضلا عن مراجعة غيره[٩٢٠] " .

وفي أسلوب عبدالقادر نلاحظ سهولة العبارة، ودقة اللفظة، وتواتر الأفكار في نظام محكم مدروس، يتجلى ذلك واضحا في رسائله السابقة حيث نجده يعمد دوما إلى السهل من التراكيب التي تخدم الأفكار والمعاني، ويستتبع ذلك صراحة في الأسلوب، ومواجهة وتحديد الأشياء بمسمياتها، ويتصل بالأداء المتحرر عنده، عزوفه

عن التنقليد، والغريب من الحديث، وإن كان أسلوبه قوياً جزلا لا إسفاف فيه ولا ركاكة، مما أضفى على تعبيره سهولة مألوفة، وبساطة واضحة دقيقة ملائمة للحال ومناسبة للمقام، ومن هنا تنوع أسلوب أديبنا، فلم يأت على نسق معين أو وتيرة واحدة، حيث اختلف من موقف إلى آخر بحسب الموضوع والعرض فهو قوي جزل يوحي بالعظمة والتحدي والقوة في رسائله مع عدوه، وهو أيضا هادئ مبشر يحمل أرق ما يقابله المرء من عبارات الإخاء والمودة والشعور الصادق.

يقول في إحدى رسائله الى الجنرال " دوماس" : و"بالجملة فنحن لا نترك قتالكم مادمتم في طغيانكم تعمهون، وفي سبيل اعتدائكم تمشون، والحروب قد تربينا عليها، وتغذينا بلبانها، فنحن أهلها من المهد إلى اللحد، وحروبنا -كما علمتم- لا نرجع فيها إلى قانون يحرسها، بل نحن مخيرون مطلقون نصرفها كيفما شئنا، وأما أنتم فقد بذلتم أموالكم، وأفنيتم قوة شبابكم في تعلم طرقها القولية، وعند اشتباك الصفوف تعاجلكم عن مراجعتها الرماح والسيوف ومما علم من كتب التواريخ القديمة أن العرب يبتهجون في معامع القتال كما يبتهج العروس ليلة عرسه، فلا يخطر في بالكم أنهم يضجرون منها أو يتركونها من ذات أنفسهم مادامت الأقدار الإلهية مساعدة لهم[٩٢١]" .

ومن أمثلة أسلوبه الهادئ الرزين المشع مودة ورقة ماجاء في رسالته إلى الوزير التونسي " مصطفى خزنة دار حين يقول: " ما روض مفتر المباسم معطر الرياح والنواسم، فداعب الربيع غصونه بورود مخضرة، وجعل إشراقه للشمس ضرة . . . . . فالباعث على تسطيرها، والحامل على وشيها أو تجبيرها المحافظة على المودة والوفاء، بحيث لا يكدر من شرابها ما راق وصفا . . . . . هذا وألسنة الأقارب المهاجرين كافة بطرفكم لم تزل تلهج بخصالكم الحميدة ومزاياكم العديدة، التي جل قدرها وسار مسير الشمس ذكرها ، ولما تكرر ثناؤهم عليكم بالغيب ارسالا ، كما هب

صبا وشمالا ، ووجب علينا أن نعلمكم بمكانهم من الانقطاع لجهتكم ، والتحيز لفئتكم ، وأن أذكرك بأحوالهم تذكرة حسنة لتعاملوهم بمقتضاها المعاملة المستحسنة ، جرياً على ما ألفوه من أفضالكم وإحسانكم وإبقاء لما تعودوه من إجمالكم وامتنانكم[٩٢٢] . "

كما تميز أسلوب عبدالقادر بالتهكم اللاذع والسخرية ، وخاصة حين يتعلق الحديث بمسائل تمس الشرف الوطني ، وسيادة وكرامة الشعب حيث لا يتسامح عبدالقادر بشأنهما إطلاقا ، على الرغم مما عرف عنه من التزام وحزم وبعد عن الهزل والمزاح ، وأمثال ذلك ما جاء في رسالته رادا على الجنرال ديميشال مبينا له سوء تقديره ، وقاطعاً أمامه سبيل الطمع في الغنائم والأموال ، التي حسب الجينرال وجنده أنهم سيحصلون عليها حين ينهزم عبدالقادر وتحتل البلاد ، يقول : " . . . . وأنتم وغيركم من رجالها نراكم دائما تساعدونها على الاعتداء والاغتصاب . . . . . ولو كان عنكم أدنى نظر سديد ماوافقتموها على إتلاف جنودها في الحرب ومواسم الأمراض المختلفة التي لاتذر ولاتبقى ، فياهل ترى ! بأي شيء تعوضون ما تخسره بلادكم من الأموال والرجال والكراع ؟ فإن كان يرضيها منكم أن تحملوا لها ما تقدرون على حمله من حجارة مدينة معسكر ، أو من تراب الأرض التي اغتصبتموها ، فافعلوا وإني أراك أيها الحاكم تبذل جهدك في تعطيل مواسمنا لتقل الحبوب عندنا ، ظنا منكم أن ذلك أقوى سبب لخضوع أهل البلاد إليكم ، والحال أن هذا ليس شيء عندهم ، فإن هممهم ليست متعلقة بلذائذ الأطعمة والأشربة مثلكم ، بل يكفيهم ما يسدون به رمقهم ، ويقيم أودهم كيفما كان على أنه يوجد عندهم من صنوف الحبوب المحفوظة في الآبار المعدة لها ما يكفيهم سبع سنين آتية ، وما تأخذونه أنتم من ذلك وهو جزء من جملة أجزاء ولا أراكم في هذا الأمر إلا كمن ملأ قدحه من البحر معتقدا أنه ينقصه[٩٢٣] " .

وكثيرا ما يستخدم عبدالقادر المحسنات البديعية كالسجع وخلافه ، ولكنه " لا يتكلف الصور البيانية لغير البيان العلمي الموضوعي ، ولا يتوقف للمحسنات البديعية

وإنما هي التي تحط على روضة السطور فلا يجلئها عنه[٩٢٤] " . فلم ينهج في ذلك سبيل معاصريه من الكتاب الذين أسرفوا في استخدام هذه المحسنات ، فطغت على كتاباتهم وطمست المضمون ، وأمسى هم الكاتب الاهتمام بالشكل ولوعلى حساب المعنى فشردت الأفكار ، وأصاب الكتابة تكلفاً وركاكة ، وأدت بها إلى الضعف والإسفاف .

والسجع عند كاتبنا إنما أتى به لإضفاء مسحة فنية جمالية ، وليس على حساب المضمون والمعنى ، ومن ذلك قوله : أصلحكم الله حالا واستقبالا ، وسدد رأيكم لإمارة العصمة جلالاً ، وسلاماً على محافلكم السامية ، يعم مرابعكم الناهية ، ويتحفها بتحفة الكرامة الباهية[٩٢٥] " ومنه كذلك " من خديم حضرتكم بوطن الجزائر ، والتي صار لغرباء الكفر وأذياله جزائر ، ولم تتفقده أسياده وحماته ، وتغافلت عنه أنصاره وفرسانه وكماته ، فهم أسرى العدو الكافر أسرا ، يفعل فيهم ماشاء ويحملهم أغلالا وإصرا[٩٢٦] : "أما بعد فإن الغيرة الإسلامية تحق لأمثالكم ، والاعتياضات الأنفية يجب على أقوالكم وأفعالكم ، وكيف لا والعدو الكافر -أذلة الله - جال في بلاد المسلمين وصال ، وسعى في خراب مدنهم وقصورهم بمساجدها المعدة للغدو والآصال وحدت شوكته على القريب والقاصي ، وتظافرت جيوشه على الإجلاء المطيع منهم والعاصي ، وأجمع عزمه وكيده في جميع بره ، وفاض على ضوءالإسلام ضوء ليله حتى كاد يخفى جدول فجره[٩٢٧] "والأمثلة على هذا كثيرة في رسائله .

وإلى جانب هذا يمتاز أسلوب عبدالقادر في رسائله بالنبرة الخطابية والتقريرية المباشرة ، وخاصة تلك التي تتعلق بالحرب والدعوة للجهاد ، حيث يبدو فيها أشبه بخطيب ، فتراه يحث ، ويحض ، يحفز الهمم ، داعياً بقوة الكلمة إلى الثورة والنضال ومدافعة الظلم والعدوان ، محذراً ، أو مبشراً ، كما جاء في إحدى رسائله الى أهل فجيج : «وفي موافقتكم استصراخنا وإجابتكم دعانا ، اتساق هيكل نظم المسلمين وصرورتهم على كلمة واحدة ، كذات متحدة ، فإن تكلفتهم بمرام المطلوب ، فحبذا المرغوب ، وأشرعوا في التأهب والتهيؤ ، بإقامة الكراع والسلاح والأخبية ، وما يعينكم

من الاعتقادات الإيمانية، لا يختلف أحد من صناديدكم من الفرسان والعساكر، وإن اكتفيتم بنظر المكتوب، ولم تجيبوا داعي الله، فهذا الواجب في حقنا، وحسابنا جميعا على الله، والله المستعان وعليه التكلان. وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب"[٩٢٨] ويستخدم الأمير أسلوب الاستفهام للتحقق والدقة، والرغبة في معرفة الفيصل بين الحقيقة والخطأ، وما يفترضه الشرع على المسلم، أو لتأكيد بعض الأمور الثابتة مستعملاً أدوات الاستفهام كـ(ما، وهل، وأي) وغيرها، ومن ذلك ما جاء في رسالته إلى علماء المغرب مستفتياً عن بعض القضايا الدينية والدنيوية، يقول الأمير: "..... وما الحكم فيمن يتخلف عن المدافعة إذا استنفر الإمام أو نائبه الناس للدفاع عن الدين والوطن؟ فهل يعاقبون على ذلك ؟ وبأي شيء يكون عقابهم؟ ولا يتأتى بغير قتالهم، وهل تؤخذ أموالهم وأسلابهم؟..... وما حكم الله فيمن يمتنع عن دفع الزكاة كلاً أو بعضاً، لدعوى عدم وجود نصابه عنده، مع تحقق وجوده في الحال؟ فهل يصدق في دعواه مع ضعف الدين في هذا الزمن؟ أم يكون للاجتهاد فيه مجال؟ ومن أين يرتزق الجيش المدافع عن المسلمين ؟... فهل يترك الأمر ويستبيح العدو الوطن؟ أم يكون ما يلزمهم أم لا؟ وما حكم أموال البغاة؟ وهل القول بعدم ردها يجوز العمل به أم لا؟[٩٢٩]".

وهكذا يمضي الأمير في طرح تساؤلاته عن كل صغيرة وكبيرة بتسلسل وترتيب، ولا يغفل من الأمور شيئا مهما كانت درجته، لأنه يدرك جيدا أن الأجوبة التي سترد على تساؤلاته، ستكون القاعدة الأساسية والسليمة في فرض وتطبيق حكم الله، وبذلك لا يظلم الأمير خصومه نقيرا.

ويصدر أسلوب عبدالقادر" عن حوار داخلي نفسي، قد يطول أمد هذا الحوار أويقصر، ولكنه يحرص على تنظيمه وتسلسله ومنطقيته وحسن الحوار بين أجزائه وإفضاء تتابعه إلى النتائج التى يرجو تحقيقها، ويسير لها سيرا منهجيا بليغا [٩٣٠] ".

وهو ما نلاحظه في رسائله، حيث يهيىء للقارئ الجو النفسي الملائم بما يضعه من مقدمات مناسبة لموضوعاته، وحسن التخلص إلى الغرض الأساسي المراد، التعرض له، فيتجاوب المتلقي معه، وينتقل به مرحلة إلى أخرى دون أن يشعر بتلك الحدود أو الفواصل الموجودة في العمل، بل يعايش الموضوع ويحياه نفسياً ووجدانياً، فتارة" يعلو النبض ويسرع الخطو وتقصر الجمل وتزدوج، ويشتد الإيقاع، ويبتعد عن الترصد الموضوعي أحيانا، ويلجأ إلى مواقف الخطابة والفروسية ولا يبقى من حيل الإقناع حينئذ إلا التأثير الفني المحض أو ما سبقه من أدلة موضوعية[٩٣١] " وتارة أخرى" تنكشف العاطفة ويجري البحر رهواً ويعود إلى قاعدته العامة في التعليم والترسل، فتمتد الأنفاس وتتبع خطوات الجمل ويسير نظم الكلام واني الخطوات واضح الطريق والمعالم[٩٣٢] " .

يقول في إحدى رسائله إلى ملك إيطاليا معزياً ومهنئاً :" ولا يخفى أن الأقدار الإلهية من شأنها أنها تختلف بين مكروه ومحبوب، وتتصرف بين مسلوب وموهوب وكثيرا ماأخذت بيد ثم ردته بأخرى، وأحزنت بكرة، ثم أحدثت بالعشي سرورا، أو بشرى هذا وإن حكم الله- تعالى- بموت عظيم إيتاليا وملكها والدكم، وإفضاء أمر الملك إليكم قد جمع بين ما يوجب الأسف والتعزية، وما يوجب المسرة والتهنئة، ولا شك أن الله - تعالى- أسى بكم حادث الكلم وسد- بشخصكم الكريم- عظيم الثلم ورد النفوس - بعد انزعاجها- إلى محالها والآمال إلى محط رحالها، فلذلك ترى النفوس إلى التهنئة أميل منها إلى التعزية، إذ الموت أمر لابد منه، وسهم لا محيد لكل مخلوق حي عنه، فالله يصلح بكم البلاد والعباد، ويوفقكم إلى سبيل الرشد والسداد ."[٩٣٣] ولا ريب أن عبدالقادر استطاع من خلال هذه الرسالة أن يبلغ مرامه فعزى، وهنأ العاهل الجديد، دون أن يشعر هذا الأخير بفداحة الخسارة، عن طريق هذا المنهج الذي مزج فيه عبدالقادر بين أمرين متضادين ولكنه غلب جانب التهنئة، وجعل من الحزن أمراً عارضاً يزول حتماً بزوال سببه .

ويقوم أسلوب عبدالقادر كذلك على الحوار المنطقي المتسلسل إيثاراً للغير بالمعرفة، واشتياقاً للوصول للحقيقة، ولذلك ترد الأفكار عند مرتبة ترتيباً حسناً

مقبولاً، كل فكرة تخدم التي سبقتها في الغرض الواحد، فهو ينتقل من فكرة إلى أخرى بطريقة تجعل المتلقى وكأنه أمام عرض سينمائي تتابع أحداثه، وفق نسق محدد ومنظم "وهوأن يبدأ بالأصل العام، ثم يأخذ في التدرج، والتقسيم والبيان، والمقابلة، والمفاضلة" ويبدو ذلك جليا في رسائله، كتلك التي بعث بها للخليفة العثماني، متعرضاً فيها لأحوال البلاد والعباد، طالباً العون والمدد، أو كتلك التي رد بها على سائله وهو يحاوره في موضوع الطلاق.

فالملاحظ على هاتين الرسالتين مثلا، تواتر الأفكار، وترتيبها الحسن وقدرة التصرف في الأسلوب الذي يتيح له التخلص من فكرة إلى أخرى، وتنظيمها في سباق الحديث بغية الإقناع والإمتاع.

ويستتبع ذلك وضوحاً في الفكرة لأن" الوضوح صفة عقلية قبل كل شيء، إذ يجب على الكاتب أن يكون فاهماً ما يريد أداءه فهماً دقيقاً جلياً، ثم يحرص على أدائه كما هو[٩٣٤] " وهذا ما انطبق على أسلوب عبدالقادر، حيث جعله متفهما لكل المسائل والقضايا، وحماه من التعصب والعناد والتزمت الذي يفرض على صاحبه قبول الأشياء والتسليم بها على علاتها، أو محجبة عن رؤية الحقيقة وإدراك المتشابه من الأمور، فمثلا وضوح فكرة الجهاد وعدم الخضوع للاستعمار دفعاه للحديث عن هذا الجانب بكل صدق، ولم يمنعه ذلك أن يصرح بما في نفسه تجاه عدو غاصب، حاول فرض همينته على البلاد، فقال موجهاً خطابه إلى أحد جنرالات فرنسا دون خوف أو وهن: ". . . مع أن القرون الماضية أعدل شاهد على ثورة الإسلام، وانتصارهم على أعدائهم، نحن- وإن كنا ضعفاء على زعمكم - فقوتنا بالله الذي لا إله إلا هو لا شريك له، ولا ندعي بأن الظفر مكتوب لنا دائما، بل نعلم أن الحرب سجال يوم لنا ويوم علينا، غير أن الموت مسر لنا وليس لنا ثقة إلا بالله وحده لا شريك له، لا بعدد وعدة، وإن دوي الرصاص وصهيل الخيل والحرب، أحب لآذاننا من الصوت الرخيم، فإذا صممتم على عقد صلات ودادية دائمة بيننا فأخبرونا[٩٣٥]

وتبلغ الوضوح والصراحة عنده حداً جعله لا يخاف في الله لومه لائم، فيخاطب

الخليفة العثماني بنبرة صريحة صادقة، واضحة لا غموض فيها، ولا مداراة، مبينا له حق المسلمين على حكامهم، سواء رضي الخليفة على أسلوب عبدالقادر أم لا، فإن الأمير كان همه الوحيد إبلاغ رسالة شعبه إلى هذا الحاكم بأمانة واخلاص ليبرئ ذمته وليضع الخليفة أمام مسؤولياته كاملة، يقول الأمير: " . . . . ونحن أسلمنا إخواننا المسلمون، وتركونا أسارى في يد العدو، فهم لنا ظالمون، وتبرأ منا من كان قريبا لنا من الملوك ومنعونا شراء ما نتقوى به على الكافر خوفا منه، ومنعونا حتى السلوك، طلبنا منهم الإعانة بالرجال فلم يقبلوا، واستعناهم بالأموال فلم يفعلوا، وطلبنا منهم السلف فكان عين المحال. . . . . فما نفعنا قريب ولا مجاور، ولا دافع عنا ذو سيف، ولا محاور، فكأن المسلمين ليسوا بجسد واحد[٩٣٦]".

ويضيف عبدالقادر: ". . . . فإن قيل مال، عندك المال الوفير، وإن قيل جيش عندك العساكر البحر، وإنا من عيالك، والله سائلك عنا، فأزل ما أثقل الظهر منا وعنا[٩٣٧] " وهكذا يتجلى الوضوح والصدق في أسلوبه لأنه كان مؤمنا بما يفعل وبما يقول، ويدعو إليه، فسيان عنده الخليفة أو المواطن حين يتعلق الأمر بمسائل تمس الوطن والدين والشرف، اقتناعا من عبدالقادر بأن تصرفاته هذه تنبع من إحساس صادق واقتناع تام " ومتى وصل إيمان المرء بفكرة إلى هذا الحد، التزم بها وثبت عليها، لا يفتأ يتحدث عنها، وفي نطاقها ولا يبرحها إلا ليوضحها، ويدلل عليها، كما أنه يحرص عليها ويتمسك بها، ويسعى إلى نشرها وتحقيقها في الواقع، مهما واجهته من عقبات، وكلفته من تضحيات[٩٣٨]

وهذا الوضوح والصدق في الأسلوب ليس مرده إلى بريق الكلمات وموسيقى العبارات وإنما هو كامل" في قوة الإيمان بمدلول الكلمات وما وراء المدلولات، إنه في ذلك التصميم الحاسم على تحويل الكلمة المكتوبة إلى حركة حية والمعنى المفهوم إلى واقع ملموس، وفي هذا يكمن السر وفي شيء آخر في استمداد الكلمات من ضمائر الشعوب، ومن مشاعر الإنسان، ومن صرخات البشرية، ومن دماء المكافحين

الأحرار[٩٣٩] وبالإضافة إلى هذا يمتاز أسلوب عبدالقادر بالعمق والدقة ومعالجة القضايا بإعطائها كل ما تستحقه من الاهتمام ومن الشواهد والأدلة والغوص في أعماقها لتجلية جوانبها مهما كانت غير ذات الشأن.

فهو يتبع المواضيع التى يطرقها في رسائله سواء كانت سياسية، أم دينية ويوليها من الشرح والتحليل والتعليل للوصول إلى النتائج المرجوة، باعتبار أن العمق في الأعمال الأدبية" سمة فكرية يكونها الذكاء التقد وإمعان النظر، فالكاتب المتعمق لا يقف عند ظواهر الأشياء ودلالتها السطحية القريبة، إنما يتبعها في بواطنها وأعماقها، ويغوص في داخلها ليتعرف على بواعثها وحقائقها، وليصل فيها إلى أشياء، لا يصل إليها الإنسان العادي[٩٤٠]

وهكذا كان نهج عبدالقادر، فمثلا حين يتحدث عن ظاهرة الطلاق التى زعم أحد السائلين المسيحيين أنها متفشية في المجتمع الإسلامي، ويعيبه على ذلك، نرى عبدالقادر يتصدى لهذه المزاعم ويدمغ حجج سائليه بما أوتيه من علم وثقافة، وبأدلة دينية علمية وعقلية، ويتدرج في الموضوع من بدايته مرحلة تلوالأخرى، ويعطي كل منها ما تستحقه من اهتمام ودراسة، بل أنه يتوقف عند بعض الأمور التي يعتقد المرء أنها ليست بذات شأن، فيشرحها ويوضحها غايته من ذلك الإفهام والإقناع العلمي والموضوعي، البعيد عن كل تعصب فلا يملك السائل إزاءه إلا القبول والتسليم.

ويبرز العمق الفكري في معظم ما كتب عبدالقادر، سواء في مناقشاته أو ردوده، بتوضيح مفاهيم الأشياء، واستنباط الحجج والبراهين، أو في نظرته إلى المشاكل والأمور الاجتماعية أو في فهم الأمور والقضايا الدينية.

وهكذا أخضع عبدالقادر أسلوبه لنزعته التعليمية، ولطبيعة المنهج الذي سار عليه، مما تولد عنه عامل جديد، هومراعاة مقتضى الأحوال" ولهذا زاد أسلوبه الخاص في أدب الحوار وضوحاً، باستحضار واستشعار ضرورة أن تكون المجادلة- بحسب

ثقافته – بالتي هي أحسن، وبلين القول، وصدق الوعد ومن أجل شعوره بنهوضه للحوار دائما جاء أسلوبه كما يتبين حواراً متسلسلاً، خالياً من الغموض والإبهام والتعقيد والحاجة للشرح[٩٤١]

وعموما فإن أسلوب عبدالقادر نثر شاعر حرص من خلاله على أن يعلم أكثر من حرصه على أن يدع سجيته وأن يتكلف أساليب البيان، ولذلك كان أسلوبه شهادة أخرى على قدرة اللغة العربية على تناول مختلف القضايا والتعامل معها بلسان عربي مبين.

وحين ننتقل للحديث عن اللغة النثرية عند عبدالقادر، فإن أول ما يلاحظ قدرة أديبنا على أن تأتي لغته ملائمة للموضوع الذي يتناوله، والتزم في ذلك الفصحى ما استطاع إلى ذلك سبيلا لأن عبدالقادر كان يدرك أنه " إذا كان الحديث اليومي يتضمن النوع من الكلام، فلا يمكننا بأي حال من الأحوال أن نعده فناً نثرياً، إلا إذا سمت لغته وألفاظه عن لغة العوام وألفاظهم، وحظي بلذة فنية خالصة في نفوس سامعية[٩٤٢].

وعلى الرغم من أن عبدالقادر كثير الالتفات إلى ما تعتقده العامة، وما يفعلونه أو يقولونه من عبارات دارجة، وأمثلة سائرة" ولكن الرجل يلتزم الفصحى، ويعيد كتابة ما ينقله عن العامة إلى عبارة صحيحة، ولا يستعين بغير الفصحى في نثره وشعره[٩٤٣].

وعبدالقادر كثير الاهتمام باللغة وما يجب أن تكون عليه، لأنها الوسيلة الوحيدة التي يستطيع عن طريقها أن يبلغ أفكاره، ويكشف بها عن تطلعاته وآماله فهو يعلم أن لكل مقام مقال ولكل مجلس وفئة لغتها الخاصة، فحاول أن يوفي كل ذي حق حقه "فأساسه الخاص للالتفات اللغوي في كل اتجاه ينطلق كالعادة من شاهد، وشاهده هنا قوله تعالى" وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم" وقوم كل رسول كما يقال ثلاثة : عامة، وخاصة، وخاصة الخاصة، فلو خاطب الرسول العامة بلسان الخاصة لأفسدهم ونفرهم، وهكذا، إذ كل نوع لا يفهم إلا بلغته، ولا يفهم الفهم المقصود بالخطاب إلا منها[٩٤٤].

على أن ذلك لا يعني أن عبدالقادر قد نزل بلغته إلى مستوى ضعيف منحط، ولكنه كان يدرك أنه يعلم ويشرح ويعظ، وبالتالى فالمقام يفرض عليه أن تكون الأداة الموصلة لأفكاره مفهومة مقبولة من الجميع كما قال الجاحظ: " ومن أراد معنى كريماً فليلتمس له لفظاً كريماً، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقها أن تصونها عما يفسدها ويهجنها. . . . . وكن في ثلاث منازل: فإن أولى الثلاث، أن يكون لفظك رشيقا عذباً وفخماً وسهلاً، ويكون معناك ظاهراً مكشوفاً، وقريباً معروفاً، أما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وإما عند العامة ان كنت للعامة أردت[٩٤٥].

ونلاحظ في لغة عبدالقادر سهولة مألوفة بسيطة واضحة دقيقة، ملائمة للغرض الذي يتناوله، تتباين من موقف إلى آخر، فهي في الشدة غيرها في البساطة، فحين يتحدث مثلا عن أمر الجهاد وما يستتبعه من ألفاظ القتال والثورة نجده يوظف كلمات وألفاظ من مثل: " صناديد- فرسان- عساكر-دوي الرصاص- صهيل الخيل".

وحين يتعرض لمواضيع السياسة تبرز الألفاظ المختارة الدالة على ذلك مثل: الاتفاق - الإنصاف - المعاهدة - الصلح - المخابرة - الغدر - المفاوضة - الشروط. . . . . وحين يتناول مواضيع دينية، يوظف عبدالقادر كلمات وألفاظ لها دلالات في هذا المجال، من ذلك: الغيرة - الشرع - الشهوة - اللذة - الحرام والحلال - الفاحشة- الإيمان- التقوى - الفساد - المعاصي - الحضانة - النفقة.

ولا يلجأ عبدالقادر في لغته إلى الغريب الحوشي من الكلام، فألفاظه وعباراته سهلة ميسرة للفهم والتدبر، ولا تحتاج من القارئ للبحث والتنقيب عن معانيها، وليست هذه البساطة والسهولة ضعفا، وإنما هي وسيلة يتعمدها الأمير، لإبلاغ وتوصيل ما يريده من أفكار، وبذلك تعد لغة عبدالقادر إذا ما قورنت بلغة وأسلوب كتاب عصره حتما في الذرة.

وبعد هذا كله فإننا نرى في الأمير مؤلفا يجيد التأليف بما يتطلبه من ترتيب وتبويب

في الشكل والمعنى، والتزام منهج عام يدل على عقل منظم، ومنطقية سليمة" وذلك جانب واضح من جوانب شخصيته العلمية إذ رأينا من ملامح هذه الشخصية متمثلا في سعة المعرفة، والإحاطة بالثقافة الإسلامية والعربية وفي رحابه الأفق والموضوعية، وروح الحيدة ودقة الملاحظة، وكان ذلك – في أكبر الظن– مما جعله عند علماء الفرنسيين الذين عرفوه ممثلا للعالم الإسلامي العربي[٩٤٦].

خاتمـــــة:

. . . . وهكذا تنتهي هذه الرحلة العلمية الأدبية الصوفية الشيقة والشاقة مع عبدالقادر لنخرج منها بمجموعة من النتائج يمكن أن نجملها في النقاط التالية :– كشفت الدراسة أوحاولت على الأقل توضيح بعض المسائل المتعلقة بحياة الأمير عبدالقادر فصاحبته مذ كان صبياً الى أن أصبح أميراً وقائداً ومؤسس دولة ثم أسيراً في يد عدوه حتى حانت ساعة الخلاص فكانت هذه الصفحات رفيقته إلى استمبول ودمشق فالإسكندرية والقاهرة والحجاز فسجلت أعمال الأمير العلمية والفكرية والأدبية والصوفية ومواقفه الإنسانية ولم تبارح الدراسة وصاحبها الأمير إلا وهو مسجى في لحده بجوار إمام العارفين الشيخ محي الدين بن عربي سنة ١٨٨٣ .

– إن شعر الأمير كان امتداداً للشعر العربي التقليدي على الرغم مما بدا فيه من ضعف وتقليد . وقد تناول عبدالقادر كل الأغراض الشعرية التي كانت معروفة في عصره كالوصف والمدح والغزل ولاحظت الدراسة خلو ديوان الأمير من الهجاء وربما يعود ذلك الى تربيته الإسلامية وأخلاقه السامية التي نأت به عن القذف والشتم. والأمر نفسه بالنسبة لغرض الرثاء ذلك أن الأمير قضى زهرة شبابه على صهوات الخيل وتجرع المرارة والمحن فكان يعتبر الموت في سبيل المبدأ والشرف والدين حياة ما بعدها حياة فلا يستحق صاحبها أن يرثي ولذلك خلا شعره من صور المأساة بقتلاها وجرحاها.

وكان داعي الفخر عند الأمير أمرين : نسبه النبوي الشريف وأعماله الجليلة وشجاعته وأخلاقه . ولم يكن فخره وقفاً على نفسه فقط بل أشرك فيه قومه وجنده وهي سمة من سمات الفروسية الحقة التي كان يتصف بها الأمير .

– أما غزله فكان نتيجة لعاملين اثنين : أثر المرأة فى نفس الشاعر وخضوعه لسلطان الجمال وقد برئ غزله من الفحش والإباحية فنحا منحى عفيفا تحكمت فيه تربيته الإسلامية وأخلاقه الفاضلة . وكثيرا ما كان يجمع بين الفخر والغزل فى قصيدة واحدة يصور فيها عذابه وما يقاسيه وشدة صبره وقوة احتماله وكثيرا ما يشكو عبدالقادر لياليه فيحسن الشكوى محاولا أن يحيي ذلك التقليد الدارس فيجمع بين طرفي الفروسية السيف والحبيبة تشبها بفرسان العرب وسعى جهده لتحقيق هذه الغاية .

– أما الوصف عنده فيأتي تارة ضمن أغراض أخرى وتارة يفرد الأمير قصائد مستقلة له يتحدث فيها عن جمال الطبيعة وبعض الحواضر التي استقر بها الشاعر دهراً . وشعره فى هذا لم يبتعد عن الوصف الحسي التقريري المباشر مما أفقده الحركة والإيحاء والنماء وان كانت للأمير قصائد ومقطوعات نهجت نهجا وجدانيا الا أن الغلبة كانت للجانب الأول .

– وما دام الهجاء محظورا فى شعر عبدالقادر فقد جاء مدحه كثيرا غلبت عليه عفة اللسان وصدق العاطفة ونبل الإحساس فكان لا يجامل ولا ينافق يمدح المرء بما فيه ان كان يستحق المدح فعلا ولا يريد من ذلك جزاء ولا شكورا . وانصبت مدائحه حول ثلاث نقاط رئيسة : مدح صوفى ، مدح سياسي ، ثم مدح أدبي اختص به أفرادا وجماعات كان الأمير يراهم أحق بالتقريظ والثناء والشكر .

– أما شعره الديني فقد تناولت الدراسة فيه التصوف – المدائح النبوية –ثم الحجازيات . فتعرضت لكل جانب بالشرح والتحليل .

ففى شعره الصوفي جلا البحث مفهوم التصوف عند عبدالقادر ومراحله التى مر

بها والأشعار التي أنشدها فى المدح الصوفي والحب والخمرة الإلهيين . كما تعرضت الدراسة لبعض النظريات الصوفية كوحدة الوجود التي رأى البعض أن الأمير كان يؤمن بها إيمانا قويا . على أن الحقيقة لا تخرج عن كونها تقليدا من الأمير ونسجاً عن منوال الصوفية السابقين ، وآيتنا فى ذلك ما عرفناه عن عبدالقادر من التزام واضح وايمان مطلق بالكتاب والسنة والإجماع .

أما حجازياته ومدائحه فقد بين البحث الأسباب الدافعة إليها وهي فى مجملها أشعار اتصفت بصدق العاطفة والحنين الفياض الى مهد النبوة وان كانت تقليدية فى بنائها ومعانيها وأفكارها فلم تخرج عن دائرة سابقيه .

– كشفت الدراسة فى مجال النثر أن الأمير كان مؤلفا يجيد التأليف ملما بعلوم عصره وتراث أمته وآثار الأقدمين فكان معلماً محاوراً بالحجة وبالموعظة الحسنة وإن اختلفت مادة كتبه ، وكان سبيله فى كل هذا العقل والنقل والذوق يلتمس فى ذلك كل السبل وتجلى ذلك فى كتبه (ذكرى العاقل . المقراض الحادوالمواقف) .

أما رسائله بشقيها فقد تبادلها الأمير مع اخوته فى الدين والمصير وانصبت حول قضية الجهاد والدعوة إلى الوحدة والتآزر والأخوة أوضح فيها الأمير جوانب الصراع وصور حالة المسلمين وعجزهم عجز المرحلة التى يمرون بها وانعدام الشجاعة لدى حكامهم فى اتخاذ القرار المستقل ابتغاء مرضاة العدو وحرصا على المناصب والكراسي .

أما مراسلاته الأخرى بينه وبين بعض قواد فرنسا وبعض حكام أوربا فقد دارت كلها حول شؤون الحرب والمعاهدات ، والأسرى والدعوة إلى الوفاء بالعهود والمواثيق بينت مقدرته على التعامل مع الأحداث وحنكته السياسية والدبلوماسية الى جانب توضيحها لبعض النواحي الفكرية والدينية التي كان يحملها البعض خطأ عن الإسلام فانبرى عبدالقادر يرد بكلتا يديه على هؤلاء مجليا حقائقها السمحة الكريمة . مزيلا ما

علقت بها من شوائب وشبهات اتخذها خصوم الإسلام مطية وذريعة لمهاجمة المسلمين، وبذلك فتح الأمير مجال المناظرات بين الغرب والشرق فكان له السبق فيها .

– بين البحث من خلال الدراسة الفنية لشعر الأمير أنه لم يضف شيئا جديدا لا في لغته وصوره وموسيقاه، فقد سلك الشاعر نهجاً تقليدياً في هذا فجاء شعره تبعاً لذلك فلم نلحظ أي تجديد سواء في الموضوعات أو النواحي الفنية .

فيما يخص اللغة الشعرية عنده فقد اعتمدت على التراكيب والقوالب الجاهزة الموروثة فبعدت عن المعجم الشعري لعصره مما يضطر القارئ إلى العودة إلى القواميس بحثا عن شرح لهذه اللفظة أوتلك . كما غلبت عليها النزعة التقريرية المباشرة مما أفقدها التصوير والإيحاء الى جانب اعتماده على المصطلحات الفقهية والنحوية والعلمية في بناء شعره .

وعلى الرغم من ذلك فقد كانت لغة الأمير في الذروة بالقياس إلى شعر زمانه، سمت ألفاظها وخلت من الغريب نسبيا، بل إن بعض الأخطاء النحوية والعروضية لها ما يبررها حين يضطر إليها الشاعر حفاظا على الوزن والقافية. أما أسلوبه في شعره فجاء تقليدياً تبعاً للتقليد في الموضوعات فلم يخرج عن نطاق أسلوب عصره المتميز بالترسل والدعاء وإن كان راقياً في بعض أشعاره ضعيفاً منحطاً في أخرى .

كما تعرض البحث لموسيقى الشعر عنده فإذا هي تقليدية لشدة محافظة الشاعر على الشكل التقليدي القديم للقصيدة العربية واعتماده البحور الخليلية المعروفة فلم تسلم من العيوب خاصة تلك التي أنشدها في التصوف لانعدام حالة الوعي أو ما يسمى بالشطحات الصوفية . وقد وفق الشاعر في موسيقاه الداخلية أحيانا واستطاع خلق نغم يتلاءم مع حالته الشعورية لسبق عواطفه وحقيقة معاناته خاصة حين يتحدث عن الفراق وعذاب الأسر والحنين الى الأهل .

– أما صوره فأغلبها تقليدي مستهلك لم يكلف الشاعر نفسه كثيرا عناء الابتكار

والتجديد فاعتمد على حاستي السمع والبصر فافتقدت صوره – بذلك – الوهج والحركة والنماء والحياة ففتر فيها الإحساس والإثارة . وعلى الرغم من ذلك فإن للأمير أشعاراً لعب الخيال فيها دوراً هاماً خاصة تلك التي تحدث فيها عن مشاعر البين والشوق والمعاناة ومرد ذلك فيما نحسب إلى صدق معايشة الشاعر وتجاربه وانفعالاته إلى جانب اعتماد بعض أشعاره في التصوف على الإيحاء والرمز حيث يوحي بالفكرة ولا يصرح بها .

أما عن الخصائص الفنية في نثره فقد توصلت الدراسة إلى الكشف بأن الأمير يصدرفي بناء نثره وأسلوبه على مصدريه الأساسين : القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف سواء في مؤلفاته أو في رسائله . فلا يكاد يخلص له نص نثري من آية أو حديث يسوقه الأمير تدعيما لرأيه وحجة قوية للإقناع والإمتاع .

وإلى جانب هذا زخر نثر الأمير بالموروث من الشعر والحكم والأمثال واستعراض لأهم الكتب التي درَسها ودرَّسها وهو ينفرد بحسن استخدامها والإستشهاد بها مع براعة في الإقتباس توحي بما كان يتمتع به أديبنا من ثقافة واسعة واطلاع كبير في شتى العلوم الشرعية والأدبية والعلمية والفلسفية .

وبينت الدراسة مدى توفيق الأمير وحسن احتجاجه بهذه الأدلة بما فيها الكتب المقدسة التي دمغت حجج خصومه وردت افتراءاتهم . وإلى جانب ذلك تعددت خصائص الأمير الفنية في نثره فإذا هو يلجأ إلى إطالة الحوار والاسترسال في الموضوعات التي تتطلب ذلك، تساعده ثروة لغوية سليمة فصيحة وحرص شديد منه على التعليم والإفادة وهو ما دعاه إلى انتقاء عباراته وألفاظه فإذا هي سهلة ميسرة للفهم – في الغالب – تمتاز بالدقة والابتعاد عن الغريب الصعب من القول في نسق مرتب الأفكار منتظم المعلومات مع إيراد الحجة والبينة في موضعها .

كما لاحظت الدراسة غلبة النبرة الخطابية في نثر الأمير – وخاصة رسائله – لأنها طريقة مخاطبة الغير والحديث إليهم والإجابة عما يسألون بأسلوب جميل موشى بالسجع وإن لم يتكلف فيه غالبا، وكثيرا ما يضمن أسلوبه التهكم والسخرية إن لزم الأمر ذلك . كما نلمس في نثر الأمير ميزة الوضوح لتقريب الفكرة وصدق مع النفس ومع الغير حيث برز ذلك جليا في مؤلفاته ورسائله أياً كان الموضوع .

تلكم هي أهم النتائج التي تمخضت عن هذه الدراسة التي حاولت أن تميط اللثام عن جوانب هامة من حياة وشخصية الأمير العالم المجاهد فاستعانت بما تيسر لها من أسانيد وسلكت في سبيل تحقيق الغاية كل السبل . فإن كان البحث قد بلغ مرامه المنشود فتلك – لعمري – الغاية التي كنا نبغي والفضل لله أولا وأخيرا وإن قصر به الجهد عن تحقيق ذلك فحسبه أنه حاول وعمل واجتهد .

ويبقى عبدالقادر مجالاً خصباً يغري الباحثين والدارسين لأننا –على يقين– أننا لم نقرأ الرجل بعد، وأن قراءتنا له لازالت قاصرة عن إدراك كل الحقائق المتعلقة بهذ الشخصية.

وما الكمال إلا لله عليه توكلت وإليه أنيب .

✱✱✱✱